

أسباب ودوافع ظهور ونشأة علم الكلام

د- عماد الدين ابراهيم عبد الرازق/ مصر

تمهيد:-

لم ينشأ علم الكلام في الإسلام نتيجة سبب بعينه، وإنما هو نتاج أسباب متضامنة، وعوامل متضافرة، اقتضت وجوده على الصورة التي نراه عليها في تاريخ الفكر الإسلامي. فهناك عوامل منبعثة من داخل الجماعة الإسلامية ذاتها كالتحالف حول بعض النصوص الدينية، مما أدى إلى اختلاف وجهات النظر في تفسير العقائد، والنحوض في مشكلات عقائدية نظرية لم يعرفها الجيل الأول من المسلمين، والتحالف السياسي الحادث حول مسألة الإمامة، وهو التحلاف الذي أدى إلى ظهور الفرق. وهناك عوامل وافدة من الخارج إلى الجماعة الإسلامية أعانت على وجود علم الكلام. لذا علم الكلام كسائر العلوم الإنسانية يمثل ظاهرة فكرية وعلمية نشأت بين المسلمين لأسباب وظروف ترجع إلى عوامل داخلية وخارجية، ويعتبر علم الكلام من أهم العلوم الإسلامية وأقدمها تاريخاً، وأشدّها حساسية حيث لا بد لكل مسلم أن يتخذ موقفاً واضحاً من أصول الاعتقاد، ويبنى عليها عقيدته الإسلامية، فعليه أن يتحرى في الأصول الدليل الصحيح والمقنع. وقبل أن نخوض في نشأة علم الكلام سواء في العوامل الداخلية أو الخارجية يجب أن نعرض لتعريفه وتسميته. يسمى علم الكلام باسم علم التوحيد والصفات، وله تسميات أخرى وردت في كشف اصطلاحات الفقه "للتها نوى". علم الكلام يسمى بأصول الدين، وسماه أبو حنيفة بالفقه الأكبر، وفي مجمع السلوك يُسمى بعلم النظر والاستبدال، ويعرفه "الايحي" في كتابه "المواقف" انتصار علم الكلام على بحث العقائد والدفاع عنها، أي إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج. وأيضاً يعرف علم الكلام بأنه علم من العلوم الشرعية المصطبغة بصبغة عقلية، تدور مسائل حول أصول العقائد الإسلامية وإثباتها والدفاع عنها ضد الآراء المخالفة لها.

وهناك أسباب داخلية وأسباب خارجية لنشأة وظهور علم الكلام.
أولاً: الأسباب الداخلية:

دور القرآن وهو المنطلق الأول والأساسي لنشوء علم الكلام وارتقائه عند المسلمين، وإليه يرجع كل متكلم إسلامي باحث عن المبدأ وأسمائه وصفاته، وقد تضمن القرآن الكريم إشارات فلسفية وعقلية، قامت على أسس منطقية مذكورة في نفس الآيات، فمن سير القرآن الكريم فيما يرجع إلى التوحيد بأنواعه يجد الحجج الملزمة، كذلك فإن القصص الواردة في القرآن الكريم تتضمن احتجاجات الانبياء وصراعهم الفكري مع الوثنيين والمعاندين من أهل اللجاجة، فهي مما يستند إليها المتكلم في آرائه الكلامية، مما جعل القرآن الكريم المنطلق الأول لنشأة علم الكلام في الإسلام، و المادة الأولى الخصبه والحية التي يرجع إليها المتكلم في استدلالاته ونقاشه⁽¹⁾. أيضا في سياق هذا الكلام كان الخلاف حول تأويل بعض نصوص القرآن أو بعض الآيات، ولقد وردت في القرآن آيات كثيرة تبين العقائد الإسلامية وأبرزها عقيدة التوحيد، حتى أن "فخر الدين الرازي في تفسيره الكبير قال "إن الآيات الواردة في الأحكام الشرعية أقل من ستمائة آية، أما البواقي فهي في بيان التوحيد والنبوة والرد على عبده الأصنام وأصناف المشركين"، ولذا قال "الرازي" وأنت لو فتشت علم الكلام لم تجد فيه إلا تقرير هذه الدلائل " يقصد الدلائل على وجود الصانع وصفاته وعلى النبوة والمعاد، والذب عنها، ودفع المطاعن والشبهات القادحة فيه⁽²⁾.

السنة النبوية الشريفة: إن النبي ناظر المشركين وأهل الكتاب بمراًى ومسمع من المسلمين، وهذه احتجاجاته مع نصارى نجران في العام العاشر من الهجرة، واستخدامه الحجج والبراهين في مجادلتهم.

(1) المرتضى : علم الهدى ، تصحيح تعليق. محمد بدر الدين التعسنى، مكتبة آية الله العظمى، ط1 ، ج1 ، ص103.

أنظر أيضا : د.على سامي نشار: نشأة التفكير الفلسفي فى الإسلام، دار المعارف، القاهرة ، ص54.

(2) فخر الدين الرازي: التفسير الكبير، دار الحديث، القاهرة، ص307.

خطب الأمام على ﷺ ورسائله وكلماته القصار، التي حفظها التاريخ، تمثل أوضح دليل على أن الأمام على هو المؤسس للأصول الكلامية، خصوصاً فيما يرجع إلى التوحيد والعدل، وبملاحظة نهج البلاغة الذي جمعه الشريف الرضي، يتراءى من الأصول الكلامية، يشير الشريف الرضي في أمثاله فيقول "أعلم أن أصول التوحيد والعدل مأخوذة من كلام أمير المؤمنين"⁽³⁾.

الخلاف السياسي: لم يكن الخلاف حول نصوص الدين وحده سبباً في نشأة علم الكلام في الإسلام إذ أن النزاع السياسي في صدر الإسلام كان ذا أثر لا يقل أهمية عن أثر الخلاف حول بعض نصوص الدين.

إن أبرز مسألة سياسية ذات خطر نشأ حولها الخلاف بين المسلمين هي مسألة الإمامة أو الخلافة. ذلك أن النبي لم يقدر نظاماً معيناً لمن يكون أماماً بعده ولذلك نشأ الخلاف حول الإمامة⁽⁴⁾.

وترك رسول الله الأمر شورى بينهم، وهنا نشأت مسألة الإمامة، أيضاً الخلاف الذي حدث في آخر عهد "عثمان" وخروج بعد المسلمين عليه ثم قتله، ثم الخلاف بين علي من ناحية وعائشة وطلحة والزبير من ناحية أخرى، وهو الخلاف الذي أدى إلى واقعة الجمل، ثم الخلاف بين علي ومعاوية، وهو الخلاف الذي أشعل نار الحرب بين المسلمين فترة، وانتهى بثبات الأمر لمعاوية وذريته، وترتب على ذلك أن الخلاف السياسي بين المسلمين ما كان ليبتعد عن الدين، لأن كل فريق من الفرق المتنازعة كان يلجأ إلى نصوص الدين ليثبت موقفه ويبرره⁽⁵⁾.

ثانياً: العوامل الخارجية:-

التقاء الإسلام بديانات وحضارات أخرى:-

الواقع أن المسلمين إبان انشغالهم بالفتوحات لم يكن لديهم من الفراغ ما يسمح لهم بالبحث في العقائد، فلما استقر أمر الإسلام في الأمصار المفتوحة وجد بعض

(3) ابن أبي حدين: شرح نهج البلاغة، دار إحياء الكتاب العربية، ط1، ج1، ص17.

(4) د. أبو ألوفا التفتازاني: علم الكلام ويعطى مشكلاته، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ص14.

(5) د. أبو ألوفا التفتازاني: المرجع السابق: ص19.

المسلمين لديهم من الوقت ما قد يسمح لهم بتناول العقائد بالبحث، يضاف إلى ذلك أن المسلمين قد احتكوا بأهل الديانات السماوية في تلك الأمصار كاليهود والنصارى، وكان هؤلاء أصحاب علم وفلسفة ولهم عناية بالجدل في العقائد، وقد ترتب على هذا الاحتكاك أن وجد لدى بعض المسلمين حب الجدل والنقاش في مسائل العقائد الإسلامية⁽⁶⁾.

ولقد صور المستشرق "جولدزهر" ما كان لالتقاء الإسلام بالمسيحية وغيرها من الديانات من أثر في بحث المسلمين في عقائدهم على صورة فلسفية قائلاً "ليس التأثير للكتب المترجمة وحدها، بل كان للاختلاط بين المسلمين وغيرهم من العناصر الأخرى كالمسيحيين داخل في هذا التأثير، ففي القرن السابع عشر حصل نقاش بين المسلمين، وجدل عنيف حول القضاء والقدر وحرية الإرادة⁽⁷⁾.

ولقد كان الاحتكاك الثقافي واللقاء الحضارى دور خاص وأثر فعال في مجال نشوء علم الكلام، فقد دفع عجلة هذا العلم إلى الأمام، وصار سبباً لنموه ونضوجه بين المسلمين بأقصر مدة، ولولا هذا الصراع الفكري - لما نمت تلك البذور الطيبة الكامنة في الكتاب والسنة.

الترجمة:

لقد كان نقل الكتب الرومانية واليونانية والفارسية إلى اللغة العربية دون نظارة ورقابة، وجعلها في متناول أيدي الناس تأثيراً في بسط الاححاد. ولقد بدأت حركة الترجمة على يد "خالد بن يزيد" فكان محباً للعلوم لذا أمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونان من كانوا ينزلون مدينة مصر، وأمرهم بنقل الكتب في الصفحة من اللسان اليوناني إلى العربي وهذا أول نقل كان في الإسلام من لغة إلى لغة، ثم نقل الديوان وكان باللغة الفارسية إلى العربية أيام الحجاج، وكان أمر الترجمة في البداية يتقدم يبطئ إلى أن ظهر "المأمون" في ساحة الخلافة فراسل ملك الروم

(6) د. أبو ألوف التفتازاني: علم الكلام وبعض مشكلاته ص20.

(7) د. محمد البهي: الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي، القاهرة، 1948، ط1، 265.

ويسأله الأذن في انقاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة المدخرة في بلاد الروم⁽⁸⁾.

فالترجمة تمثل أهم العوامل التي أدت إلى إزدهار علم الكلام إبان العصر العباسي، وأطلعت على تحديد مسأله، وتعميق مبحثه، ودقة مناهجه، إطلاع المتكلمين من المسلمين على المنطق اليوناني والفلسفة اليونانية، وهذا لعب دوراً في إطلاع المسلمين على الحجج المنطقية والبراهين الفلسفية، وقيل أن ابن المقنع هو أول من ترجم المنطق إلى العربية، ولعل ذلك كان راجعاً إلى حاجة المسلمين الملحة إليه، فقد كان المتكلمون من المسلمين يرغبون في التسلح به فصومهم من أهل الديانات الأخرى، مما كانت لهم دراية بالمنطق وبالفلسفة اليونانية⁽⁹⁾.

مما تقدم يتضح لنا أن هناك أسباباً داخلية وأسباباً خارجية تضافرت لنشوء وظهور علم الكلام. بمعنى وجود أسباب خاصة داخل المجتمع الإسلامي ذاته، تتمثل في الاختلاف في فهم نصوص القرآن وآياته سواء المتشابه منها والمحكم، فهناك آيات تتعلق بالتشبيه والتجسيم، مثل الآيات التي ورد فيها ذكر اليد والوجه والاستواء على العرش، ولكن إلى جانب هذه الآيات توجد آيات التنزيه المطلق مثل قوله تعالى (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) وهي الواجبة الاعتقاد.

من هنا نرى أن النصوص الدينية نفسها كانت من العوامل التي دعت إلى ظهور علم الكلام، إما لأن بعض هذه النصوص قد أثار بطبيعته في عقول بعض المسلمين حب البحث في العقائد الإسلامية والتصدي للعقائد المخالفة لها، أو لأن بعض النصوص من قبيل المتشابه الذي لا يدرك كنه معناه، كبعض آيات الصفات، هذه النصوص المتشابهة أرت إلى مشكلات عقائدية كانت فيما بعد موضوعاً لعلم الكلام. كذلك عوامل الالتقاء والاحتكاك بأصحاب الديانات الأخرى، والإطلاع على ثقافة هذه الشعوب أدى إلى معرفة المسلمين لعلوم مثل المنطق والفلسفة، وهذا

(8) الشهرستاني: الملك والنحل، دار المعرفة، بيروت، ط2، ص24.
أنظر أيضا ابن النديم: الفهرست، تحقيق تجدد رضا، طهران، ص303.

(9) د.أبو ألوفا التفتازاني: علم الكلام وبعض مشكلاته، ص33.

غرس بذور الجدال والمحيج البرهانية العقلية، وجعل المسلمين يستخدمون هذه العلوم العقلية، في الدفاع عن العقائد الإسلامية ضد المخالفين لها، وكانت من الأسباب العامة في ظهور علم الكلام. والترجمة مثلت رصيذا هاما لمعرفة واطلاع المسلمين على ثقافات الشعوب الأخرى وعلومهم مما كان له الأثر في معرفة المسلمين لعلوم جديدة لن يعرفوها من قبل. إذن تضافرت الأسباب الداخلية والخارجية لنشأة وظهور علم الكلام وتطوره فيما بعد.